

This article is about the scientific path of Germaine Tillion known and recognized in the scientific field under the name of the "ethnologist of the Auras". As a woman, Germaine Tillion was already distinguished, her status was reflected in her researches on the concentration camp of Ravensbrück in Germany and on the Chaouias (Inhabitants of the Auras in Algeria). Through this article, we discover the relation between the scientific career of Germaine Tillion and her different life steps marked by the political events she lived especially in Germany and during the Algerian war.

مقدمة.

يتعلق موضوع هذا المقال بالباحثة الفرنسية المعروفة Germaine Tillion جرمان تيون (1907-2008) وخفايا مسيرتها العلمية سيما مهمتها العلمية التي كلفت بها رفقة زميلة لها تدعى Thérèse Rivière "تيريز ريفيير"، في إطار منحة قدمها لها متحف الإنسان بباريس ومولها المعهد العالمي للدراسات اللغوية والثقافية بلندن.

من خلال هذا المقال سيتم تسليط الضوء على التجربة العلمية التي خاضتها جرمان تيون في ميدان علم الأجناس وعلى الأحداث السياسية التي أدت في خضمها المهمة العلمية التي كلفت بها، تلك الأحداث التي اتضح -مثلما سيتم تبيانها في هذا المقال- أنها لم تتركها محايدة اتجاه ما كان يجري في الجزائر خلال فترة الاستعمار الفرنسي، بل أكثر من ذلك، لقد جعلتها باحثة مميزة في هذا التخصص العلمي الذي برزت واشتهرت فيه الكثير من الأسماء اللامعة أمثال Claude Lévi-Strauss كلود ليفيس

جرمان تيون... الباحثة العلمية

التي صنعتها الأحداث السياسية

Germaine Tillion, a in a scientific career made political cradle

د. بن جيلالي فلة

أستاذة محاضرة قسم أ

قسم العلوم السياسية / كلية

الحقوق والعلوم السياسية / جامعة

الجيلالي بونعامة خميس مليانة

الملخص

يدور موضوع هذا المقال حول الباحثة جرمان تيون المعروفة والمُعترف بها في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها العلوم السياسية بالباحثة المختصة في علم أجناس الأوراس. فهي الباحثة التي تميزت بالمواقف السياسية التي اتخذتها والتي كانت ذات صلة وطيدة بمشوار حياتها الخاصة وبالتجارب السياسية التي خاضتها خلال مسيرتها العلمية. وعليه سيكشف لنا هذا المقال العلاقة التي تربط المسار العلمي لجرمان تيون بظروف حياتها الشخصية والمحطات السياسية التي استوقفتها سيما تلك المتعلقة باعتقالها في المعسكر الألماني لـ"رافنزبروك" ومنحتها العلمية بمنطقة الأوراس في الجزائر.

The summary

جرمان تيون ومنحتها العلمية إلى الأوراس

عاشت جرمان تيون التي ولدت بمدينة (أليشر Allègre) بغرب فرنسا سنة 1907، أهم الأحداث التاريخية وأصعب المراحل التي مرت بها الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، خاصة وأنها تواجدت بالجزائر أربع مرات متقطعة، صادفت أولها مناسبة احتفال فرنسا بقرن من استعمارها للجزائر في 19 ديسمبر 1934، متى قامت بمهمة علمية كلفت بها وزميلتها الباحثة تيريز ريفيير من طرف اللجنة العلمية للمعهد العالمي للدراسات اللغوية والحضارات الإفريقية بلندن، كان الهدف من وراءها كما ورد في الوثائق الإدارية، "يتمثل في أداء دراسة ميدانية اجتماعية واثنوغرافية حول منطقة الأوراس وسكانها، من خلال رصد وجمع وتسجيل مختلف العادات والتقاليد والممارسات والسلوكيات التي يختص بها الأوراسيون، والتقاط الصور التي تعبر عن الحياة الاجتماعية في تلك المنطقة"⁽¹⁾.

تم اقتراح جرمان تيون، وتيريز ريفيير للقيام بهذا البحث الميداني بالأوراس، من طرف مارسيل موس، حفيد المفكر الاجتماعي الفرنسي إميل دوركايم، الذي كان في نفس الوقت أستاذ جرمان تيون التي تخرجت من معهد إتنولوجيا بباريس سنة 1932، تلك الطالبة التي لم تكن متحمسة لأداء بحثها الميداني بالجزائر نظرا لقرب المسافة بين هذه المستعمرة وبين فرنسا، بل كانت تود أن تسافر نحو القارة الأمريكية أو الآسيوية بعيدا عن فرنسا ومستعمراتها.

دامت مهمة جرمان تيون الأولى بالأوراس إلى غاية 31 أكتوبر 1935، وانطلقت مهمتها الثانية بعد عودتها من جديد إلى المنطقة في 22 جانفي 1936 واستمرت إلى غاية 16 فيفري 1937، بينما تمت المهمة الثالثة من 09 أوت 1939 إلى غاية 31

تروس، Jack Goody جاك جودي، و Marcel Mauss مارسيل موس.

حقيقة أن جرمان تيون تركت بصمتها كباحثة وكمؤلفة وكذا كامرأة، شجاعتها في الميدان وصمودها أمام الظروف التي مرت بها في مختلف مراحل حياتها، لا زال يشهد لها التاريخ لحد الساعة، غير أن مكانتها وشهرتها العلمية ظلت لا تقارن ولا تضاهي مكانة وشهرة أسماء أخرى استحوذت على ألقاب لامعة في مجال البحث في علم الأجناس، فماذا عن خلفيات هذا التميز الذي تتمتع به شخصية هذه الباحثة من جهة والذي جعلها -في نفس الوقت- تختلف عن غيرها من بقية الباحثين المعروفين في مجال تخصصها؟ وكيف يمكن للأحداث السياسية التي مرت بها هذه الشخصية العلمية في حياتها أن تصنع لها -أي للباحثة- مكانة علمية تعرف ويعترف لها بها على المستوى العالمي؟

إن المحطات التي ستتخلل صفحات هذا المقال، هي التي ستساعد القارئ على الكشف عن سر خصوصية هذه الباحثة وعن العلاقة التي تربط مسار حياتها الشخصية ومواقفها السياسية بمسيرتها العلمية، وقد تم صياغة هذه المحطات في العناوين الآتية:

-جرمان تيون ومنحتها العلمية إلى الأوراس

- جرمان تيون ومنحتها في "رافنزبروك"

- جرمان تيون وثورة التحرير الوطني

- بروز جرمان تيون كامرأة باحثة في وسط

سياسي وعلمي ذكوري بامتياز

- البعد الذكري في الأعمال العلمية لجرمان تيون

ديسمبر 1939، أما المهمة الأخيرة فقد كانت ما بين 01 جانفي 1940 و 30 ماي 1940.⁽²⁾

أثناء قيامها بمهمتها العلمية بالأوراس، وبالضبط في "لحمر خدو" مع قبيلة "آث عبد الرحمان"، كانت جرمان تيون، تطبق ميدانيا إرشادات أستاذها مارسيل موس، الواردة في مؤلفه المشهور "موجز الإثنوغرافيا"⁽³⁾، حيث كانت تحاول مشاركة أهل الأوراس حياتهم اليومية، فتشاطرهم أعراسهم واحتفالاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتتجه معهم للقيام بالزيارات المختلفة وتقصد أسواقهم وتحضر جنازتهم، كما كانت- على حد قولها وشهادة البعض ممن كتب عن حياتها- تساعد (أي الأهالي) في كتابة رسائلهم وعرائضهم الموجهة للإدارة الفرنسية، وكانت المرأة الفرنسية التي تجيهم عن التساؤلات الفضولية التي قد راودت الكثير منهم حول فرنسا وطبيعة الحياة الفرنسية⁽⁴⁾.

لجأت جرمان تيون في إعداد بحثها الميداني بالأوراس، إلى إحدى التقنيات التي استعملتها من أجل تدعيم البيانات والمعلومات التي نقلتها عن أهل هذه المنطقة، إضافة إلى تلك الأشياء والأدوات التي كان يصنعها ويستعين بها الأوراسيون في حياتهم الاجتماعية اليومية، بل وحتى الألعاب والدمى التي كانت منتشرة آنذاك، حيث نقلتها الباحثتان (جرمان تيون وتيريز ريفيير) إلى متحف الإنسان بباريس أين تم عرضها للجمهور سنة 1943، علما أن هذا الأخير يحتضن "857 وحدة أثرية من منطقة الأوراس"⁽⁵⁾.

رغم أن جرمان تيون حاولت أن تكون دقيقة في كل مرة تكتب فيها عن مهمتها في الأوراس، غير أن مهمتها هاته ظلت تحمل دوما نوعا من الغموض والإبهام، خاصة فيما يتعلق بنتائج البحث الميداني، الذي بين أحد التقارير الذي كانت قد أعدته جرمان تيون وتيريز ريفيير في شهر ديسمبر 1935 (أي في

منتصف المهمة الأولى)، أنهما قد جمعتا ما يقارب "6000 صورة و3000 تحقيق ميداني حول المنطقة"⁽⁶⁾، في حين أن المراجع التي تناولت موضوع هذه المهمة لم تحتو إلا على حوالي 300 صورة على الأكثر، منها 110 لتيريز ريفيير نشرت في "فاني كولونا" سنة 1987، لتبقى 180 صورة لم تنشر بعد⁽⁷⁾.

جرمان تيون ومحتنها في "رافنزبروك"

بعد انتهاء من مهمتها في الأوراس سنة 1940، عادت جرمان تيون إلى باريس في 09 جوان 1940 في أجواء الحرب العالمية الثانية التي تجندت لها رفقة بعض الباحثين التابعين لمتحف الإنسان بباريس، بل وأشرفت على قيادة شبكة المقاومة لهذا المتحف ضد الألمان باسم ثوري عرفت به وذلك إلى غاية اعتقالها ووالدتها في شهر أوت 1942 إثر خيانة أحد مرافقيها، حيث سجن طيلة 14 شهرا، قالت أنها استغللتها لكتابة أطروحتها حول الأوراس، بل وأعلنت أنها كانت قد أضاعت خلال هذه الفترة حصة كبيرة من وثائقها حول الأوراس⁽⁸⁾، وفي 21 أكتوبر 1943 تم نقلها ووالدتها إلى المعتقل الألماني بـ (Ravensbrück)⁽⁹⁾، إلى أن تم إطلاق صراحها في 23 أفريل 1945 بعد أن فقدت والدتها بالمعتقل.

تقول جرمان تيون في كتابها "رافنزبروك"¹⁰، أنها استغللت خبرتها العلمية التطبيقية في الأوراس إلى جانب "موجز الإثنوغرافيا" لأستاذها مارسيل موس، من أجل تجاوز صعوبة الحياة بالمعتقل الألماني وذلك بتوثيق المعلومات الخاصة بالحياة اليومية داخل المعتقل (حيث عددت النساء المعتقلات حسب جنسيتهم وسنهم، وانتماءاتهم الاجتماعية، كما وضحت المواعيد والبرامج التي كانت تسير عليها يوميا، وبينت نوع العقوبات التي كن تتعرضن إليها وفقا لنوع المخالفات التي كن ترتكبنها)، وقد طبقت بهذا

الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد شاركت جرمان تيون بعد 1945 في العديد من الهيئات الجمعوية ذات الصلة بموضوع الاعتقال والمعتقلات خلال الحرب العالمية الثانية.

جرمان تيون وثورة التحرير الوطني

بعد رجوعها من الولايات المتحدة الأمريكية في 24 نوفمبر 1954، تفاجأت جرمان تيون بوجود برقية موجهة إليها من طرف أحد أساتذتها في فرنسا المستشرق "لويس ماسينيون" طالباً منها أن ترافقه يوم 25 نوفمبر 1954 إلى مكتب وزير الداخلية آنذاك "فرانسوا ميتيران"⁽¹³⁾ بصفتها مختصة في الأوراس، الأمر الذي انتهى بتكليفها بمهمة في الجزائر من أجل تزويد الحكومة الفرنسية بمعلومات دقيقة حول موقف الأهالي الجزائريين بعد اندلاع ثورة التحرير في الفاتح من نوفمبر 1954، علماً أن الأوراس كانت رمزا لاندلاع هذه الثورة.

انتقلت الباحثة مباشرة بعد لقاءها بوزير الداخلية إلى الجزائر العاصمة عبر الباخرة، وهي تشهد أنها غادرت مرسيليا دون أدنى وثيقة رسمية، بل بمجرد ثلاث عناوين: عنوان العقيد (شوان Schon)- وعنوان العقيد (دو جون سيل De Jean Scelles)- وعنوان الأستاذ الجامعي (ديرمانغيم Dermenghem).

بعد لقاءها بتلك الشخصيات، عازمت جرمان تيون إلى التوجه من جديد إلى الأوراس الذي انقطعت عنه منذ 1940، وأثناء رحلتها تلك بدأت جرمان تيون تسمع عن أحداث 08 ماي 1945، الشيء الذي يؤكد أن هذه الأحداث لم تكن مكموعة سياسياً وعسكرياً فقط، بل أيضاً إعلامياً، ويدهشنا هنا أمر جرمان تيون التي لم تسمع عن هذه الأحداث الرهيبة التي خلفت أكثر من 45000 ضحية، فقد تكون قطيعتها تلك مع الجزائر بالنظر إلى اهتمامها

النموذج نفس المهاج الذي اعتمدته في دراستها لمجتمع الأوراس.

لقد شاءت الأقدار بعد إطلاق صراحها في أفريل 1945، أن تدخل جرمان تيون إلى المستشفى بالسويد رفقة كل المعتقلات اللواتي أطلق صراحهن مثلها، ومباشرة بعدها شرعت في تحرير مشروع كتاب حول الحياة في المعتقل وذلك استناداً للمعلومات التي كانت قد سجلتها من قبل، كما أنها ساهمت خلال هذه الفترة في الإجراءات الإدارية الخاصة بضبط القائمة الاسمية لرفقائها في المقاومة التابعين لمتحف الإنسان، والإدلاء بشهادتها في إطار محاكمة إدارة معتقل "رافتر بروك" تلك التي دامت إلى غاية جانفي 1947.

للإشارة، وخلال هذه الفترة، طالب المعهد العالمي للدراسات اللغوية، والحضارات الإفريقية بلندن من جرمان تيون بالدراسة التي كلفت بها مثلما طالبها بتبرير تكاليف المنحة التي استفادت منها بالأوراس، الأمر الذي اضطر الباحثة إلى إثارة موضوع اعتقالها لتبين أنها فقدت جلّ وثائقها ومذكراتها حول الأوراس حين انتقالها من سجن بفرنسا إلى المعتقل الألماني، لكنها استطاعت أن ترسل في ديسمبر 1948 تقريراً يتضمن 74 صفحة، يحمل عنوان "مناهج البحث الميداني في علم الاجتماع في بلاد البربر"⁽¹¹⁾، غير أن اللجنة العلمية للمعهد السابق الذكر أجابها بصرامة رافضة عملها، ومؤكدة بأنه عمل غير صالح للنشر الأكاديمي⁽¹²⁾.

إلتحقت جرمان تيون سنة 1948 بالمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، أين واصلت عملها العلمي حول المعتقل، خاصة وقد تحصلت على منحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل تعميق دراستها حول المعتقلات، علماً أن البعض من أرشيف الشرطة الألمانية بفرنسا نقل إلى الولايات المتحدة

بموضوعها الحميم حول الاعتقال والمعتقل من جهة، وقد يكون أيضا ردّة فعل للنقد العنيف الذي تلقته حول تقريرها عن الأوراس من طرف اللجنة العلمية لمعهد لندن.

عين في 26 جانفي 1955 (جاك سوستال Jack Soustelle) من طرف رئيس مجلس الدولة (بيار منديس فرانس Pierre Mendes France)، كحاكم عام للجزائر المستعمرة، هذا الرجل الذي عرف بالجرائم العنيفة وسياسته القمعية المتشددة في الجزائر والذي إلّتحق فيما بعد بالمنظمة العسكرية السريّة (OAS)، علما أنه كان مديرا فرعيا سابقا في متحف الإنسان بباريس وزميلا لجرمان تيون في نهاية الثلاثينات، باعتباره مختص في علم الأجناس (الاثنولوجيا) بصفة عامة، وفي دراسة المجتمع المكسيكي بصفة خاصة.

وفي 22 من شهر فيفري 1955 (أي أقل من شهر بعد تعيين جاك سوستال حاكما للجزائر، وبعد بضعة أسابيع من وصول جرمان تيون إلى الجزائر)، استقبل جاك سوستال بمكتبه الذي كان على حدّ قول جرمان تيون « ملكي، يُطلّ على أجمل منظر في العالم⁽¹⁴⁾ » المكلفة بالمهمة (أي جرمان تيون)، التي عرضت عليه وجهة نظرها حول الأوضاع المؤسفة في الجزائر وفقا لما لاحظته منذ مجيئها، فطلب منها سوستال أن تنظم إلى ديوان الحكومة، الشيء الذي رحبت به جرمان تيون وقدمت على إثره استقالتها من المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي (CNRS)، ومن ثمة تركت بحثها حول موضوع المعتقلات.

بعد انضمامها إلى ديوان الحكومة، قامت جرمان تيون بتأسيس حوالي 120 مركزا اجتماعيا (Les Centres Sociaux) في الفترة الممتدة من 1955-1962، اختصت كلها في تقديم الإعانة الطبية والغذائية ومحو الأمية لفائدة الأهالي الجزائريين، ظنا

منها أن اليؤس الاجتماعي هو أحد أهم الأسباب في قيام الثورة، ولعل وصفها لأهل الأوراس الذين قالت أنها وجدتهم في الثلاثينات في فقر كبير وعادت لقاءهم في الخمسينات في بؤس عظيم⁽¹⁵⁾، لدليل على ذلك.

في إطار القمع الذي اشتدت وقائعه على إثر أحداث 8 ماي 1945، وكذا بعد أحداث 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني، والذي دفع البرلمان الفرنسي إلى منح السلطة الكاملة للجيش الفرنسي لتسيير الشؤون الجزائرية سنة 1956، حيث شاع حكم الإعدام والقتل الجماعي، والتعذيب والاعتقال بالمعسكرات، والمحتشدات... إلخ، تحركت اللجنة الدولية المناهضة لنظام المعتقلات (CICRC)⁽¹⁶⁾ والمحتشدات، وطلبت بإجراء تحقيقات ميدانية بالجزائر حول الموضوع، وفي 18 جوان 1957، عاودت جرمان تيون حطّ رحالها بالجزائر بصفتها العضو الفرنسي في لجنة التحقيق السابقة الذكر إلى جانب أعضاء أوروبيين (بلجيكا هولندا والنرويج).

في نهاية هذه المهمة الجديدة وبالضبط يوم الخميس 04 جويلية 1957 حينما كانت جرمان تيون متواجدة في فندق الجزائر حاليا (سان جورج Saint Georges سابقا) جاءتها صديقاتها الأستاذة (فاطمة حمدي كان) لتعرض عليها استقبال مجموعة من الأشخاص يطلبون مقابلتها، وقد كان الأمر يتعلق برفقاء ياسف سعدي، ومنهم علي لابوانت وزهرة ظريف)، وبالفعل التقت جرمان تيون بالجماعة السابقة الذكر بحي القصبة لمدة 4 ساعات ونصف على حدّ قولها⁽¹⁷⁾، وبعد يومين (06 جويلية 1957) غادرت -رفقة لجنة التحقيق - نحو باريس، أين تم استقبالها على مستوى رئاسة مجلس الدولة ومن ثمة نقلت لهم أخبار ذاك اللقاء الذي جمعها بجماعة ياسف سعدي بالقصبة، في 08 جويلية 1957.

البعض من تلك الصور تشبه كثيرا الصور التي كان من الممكن أن ينتجها الرجال الإثنولوجيون، بالإضافة إلى إدراكنا بأن البعض الآخر منها (سيما صور النساء والحلي والممارسات الأنثوية اليومية، والأعراس والبيوت والأطفال والألعاب) لم يكن بالإمكان التقاطها إلا من طرف امرأة.

من جانب آخر، وحينما تلقي نظرة دقيقة على الصور التي التقطتها جرمان تيون، نلاحظ أن العديد منها تخص الرجال، بل الشرفاء منهم، المسنين، وزوار الأضرحة، وهذا ما يدل على أن جرمان تيون كإمرأة كانت تحضى بقبول اجتماعي للولوج إلى عالم الرجال، على عكس زملائها الرجال الذين يعود إليهم الفضل في فتح مجال الإثنولوجيا والأبحاث الميدانية للنساء منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وظهور الملامح الأولى لعلم الأجناس (الإثنولوجيا)، فقد كانت أولى النساء اللواتي خضن تجربة في ميدان علم الأجناس من حظ زوجات أو شقيقات إثنولوجيون رجال ونذكر مثلا أن تيريز ريفيير التي كلفت بالبحث في الأوراس مع جرمان تيون، هي شقيقة مدير فرعي بمتحف الإنسان بباريس، وأن جاك سوستيل الذي سبق الحديث عنه، حطّ الرجال بالمكسيك كباحث رفقة زوجته "جورجيت"، مثل "ليفيس ستروس" الذي توجه إلى البرازيل مع زوجته "دينا".⁽²⁰⁾

لقد كان دخول النساء إلى عالم الإثنولوجيا، ضرورة وحاجة ماسة تطلبها التخصص من جهة والمتخصصون الرجال من جهة أخرى، هؤلاء الذين استنجدوا بالنساء اللواتي كنّ تقمن بالدور الكلاسيكي و"العادي" للنساء اتجاه الرجال (الطبخ، المرافقة،... إلخ) وبالمهام البسيطة كترتيب وتصنيف الآثار وتنظيمها والحفاظ عليها بمتحف باريس مثلا، هذا إضافة إلى المغزى الرئيسي لدورهن المتمثل في تغطية الجوانب التي يصعب على الرجال الوصول إليها في البحث الميداني، حيث كان يتم إعداد تلك

قررت رئاسة مجلس الدولة الفرنسي، إرسال جرمان تيون إلى الجزائر في مهمة أخرى في 24 جويلية 1957، وقد قابلت جماعة ياسف سعدي من جديد، ذاك الذي تم اعتقاله في شهر سبتمبر من نفس السنة، ثم محاكمته في 1958، تلك المحاكمة التي حضرتها جرمان تيون كشاهد لصالحه، بل وقد تدخلت بعد صدور حكم الإعدام أمام شارل ديغول الذي أصدر قرار العفو عنه.⁽¹⁸⁾

بعد عودتها مرة أخرى إلى العاصمة الفرنسية سنة 1958، استأنفت جرمان تيون نشاطها العلمي، وانطلقت في تدريس إثنولوجية المنطقة المغاربية بباريس، وفي 1963 كوّنت مجموعة بحث حول الأدب الشفهي، اللسانيات وإثنولوجية المجتمعات العربية والبربرية، وأشرفت على جملة من الأطروحات الجامعية لطلبة جزائريين أو/و المختصين في ميدان بحثها كما أنها أسست مجلة علمية تحمل عنوان: "الأدب العربي-البربري الشفهي" في نهاية الستينات، وقد اشتهرت بمؤلفها "الحريم وأبناء العم" الذي تعرض لانتقادات شديدة مثلما حضي بصدى إيجابي⁽¹⁹⁾، على غرار بقية مؤلفاتها التي يمكن اعتبارها ضحية مواقفها السياسية، إذ أنها أصبحت تعرف أكثر بشخصيتها ومسارها على حساب إصداراتها التي ترجمت إلى أكثر من لغة ونشرت بعدة دول.

بروز جرمان تيون كأمراة باحثة في وسط سياسي وعلمي ذكوري بامتياز

إذا كانت أحداث معتقل "رافنز بروك" وثورة التحرير الجزائرية والأوراس بصفة خاصة، هما العاملان الرئيسيان في شهرة جرمان تيون، تظلّ مستها الأنثوية طابعا لا يمكن تجاهله في رسم هذه الشهرة، إذ يتعذر علينا فهم وإدراك حقيقة وخصوصية الصور التي التقطتها جرمان تيون عن الأوراس إذا لم نأخذ بعين الاعتبار جنس وتخصص جرمان تيون، فقد ندرك من خلال ذلك أيضا أن

إنّ التمعن في الصور التي إلّقطتها جرمان تيون²³ حول الأوراس وأهله، تبين أنها كانت منشطرة بين أمرين: أولا كانت مضطرة إلى تأسيس علاقة حميمية وصادقة مع أهل الأوراس رجال، ونساء وأطفال، وكلّها إدراك بأنها ستتقدم إليهم كإمرأة، ومنه ستنتظر منهم معاملة عاطفية، حساسة ولطيفة.

أما الأمر الثاني، فهو يتعلق بضرورة تطبيق جرمان تيون "لموجز الإثنوغرافيا" لأستاذها مارسيل موس الذي يؤكّد من خلاله على وجوب إبقاء الباحث على مسافة تفصل بينه وبين مجتمع دراسته (الأهالي)، ليتحلّى بالموضوعية، الشيء الذي يظهر عند جرمان تيون من خلال تلك الصور التي إلّقطتها وجها لوجه (على طريقة الرجال أي بطريقة ذكورية)، كما أنها صور لم تلتقطها بصفة فجائية أو بصفة سرية (من الخلف، أو من الجانب)، أيضا فإننا لا نلاحظ وجود أدنى صور تعبّر عن خيار جمالي أو عاطفي لجرمان تيون، ولا وجود لأيّة صورة حميمية، بل حتى الصور التي تظهر هي فيها، حرصت على أن تكون فيها واقفة، أو في مكتبها، أو بالميدان رفقة مستجوبها، مكتسية لباسها الغربي المختلف عن لباس الأهالي، دون حليّ بمعنى أنها حافظت على شخصيتها وهويتها حتى في شكلها الخارجي، وكأنّها تودّ أن تقول أنها لم تتأثر ولم تؤثر على المجتمع الأوراسي.

من جانب آخر، نلاحظ أن جرمان تيون التي جاءت للأوراس من أجل أن تكتشفها، بالعكس قد حجبها، حيث منعت نفسها من تصوير ما يجري داخل بيوت الشاوية، بل وحتى من تصوير داخل البيوت في حدّ ذاته، واقتصرت على أخذ صور عامة، من بعيد تشمل كل البيوت ولا تخص بيتا معينا.

كما أننا، واستنادا إلى تلك الصور، نلتمس أيضا موضوعية جرمان تيون التي حاولت أن تتجرّد من كل ما يثير موضوع الدين (الإسلام) أو اللغة التي

الباحثات للمهمات التي كلفن بها، فقد صرحت- في هذا الإطار- جرمان تيون وتيريز ريفير إلى صحفي بجريدة (صدى الجزائر L'écho d'Alger) يوم 10 ديسمبر 1934، أي عشية وصولهما إلى الجزائر العاصمة، « بأن مدير متحف الإنسان، الدكتور " ريفي Rivet" كان متأكد من قدرة وسهولة تقرب النساء من الأهالي المسلمين الجزائريين، بل ومن نساءهم اللواتي تعتبرن أكثر تفتحا على نساء الغير مقارنة بعلاقة رجالهم بالرجال الغرباء».⁽²¹⁾

كما صرحت الباحثتان بأنهما قد جلبتا معهما في رحلتهما نحو الأوراس، كميات من الحلويات والشكولاتة والمساحيق والعطور كهدايا للنساء الشاويات، من أجل توطيد العلاقة معهن.⁽²²⁾

البعد الذكري في الأعمال العلمية لجرمان تيون

من خلال ما سبق، كان من المتوقع ومن المنتظر أن تظهر اللمسة الأنثوية على الإنتاج العلمي لجرمان تيون بصفة مباشرة أو غير مباشرة، غير أن الملاحظ عن جرمان تيون في أسلوب كتابتها ووجهة نظرها التي تعبّر عنها الصور التي إلّقطتها، هو تجردها من إظهار لمستها الأنثوية أو الخضوع لعواطفها وذاتيتها الخاصة، وكأنّها تحاول قدر الإمكان التحرر من جنسها وميولاتها الذاتية حرصا منها على ضمان أقصى حدّ من الموضوعية، بل إلى درجة لن يستطيع الرجال أن يتفوقوا في تحقيقها، فقد قامت جرمان تيون ببذل مجهودها حتى تكون على الأقل متساوية في أعمالها للباحثين الرجال الذين يعتبرون في نظر الكل مقياسا للموضوعية العلمية، وكأن مسح وإخفاء اللمسة الأنثوية يعتبر في حدّ ذاته سلوكا علميا موضوعيا لأنه سلوك لا يمكن أن ينعت إلا بالسلوك الذكوري، وكأن الموضوعية العلمية لا يمكن أن تكون إلا ذكورية.

لكن الملاحظ أن التمعن الدقيق في تلك الصور، يبين بعض الحالات التي تعكس آثار الحضارة الغربية عند أهل "لحمر خدو" حيث نرى مثلاً صورة تظهر فيها آلة خياطة وأخرى بدلة عصرية، وبنادق صيد، وأحذية عصرية وغيرها من ملامح حضارية.

خاتمة

بعد مرور عقود على تاريخ مهمة وأعمال جرمان تيون حول الأوراس، لا زالت هذه الشخصية تجلب الباحثين العلميين إلى أعمالها للاطلاع على تجربتها والميزة التي تفرد بها عن غيرها.

إن أعمال جرمان تيون حول الأوراس لا تحمل في الحقيقة شيئاً مميزاً أو خارقاً للعادة عن هذه المنطقة وعن أهل الشاوية، فمثلاً نلاحظ أن العديد من المناظر التي تعكسها الصور التي التقطتها لأجل هذه الدراسة هي مناظر عادية، طبيعية، من الممكن جداً ملاحظتها اليوم في عصرنا هذا، لكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود قيمة فنية عالية، وأهمية بالغة لما تحمل هذه الصور بين طياتها، سيما وأنها صور تم التقاطها من طرف امرأة باحثة في علم الأنثروبولوجيا في الثلاثينات من القرن الماضي، تلك الشخصية التي أصبحت اليوم بعد وفاتها في 2008 وهي في القرن والسنة الواحدة من عمرها، ذات شهرة عالمية وعلمية، ولعل الصور القليلة (حوالي 10 صور) التي تظهر فيها جرمان تيون هي الأكثر شهرة وجاذبية وقيمة من كل الصور التي التقطتها بنفسها حول الأوراس، والتي ستبقى، دون شك، تتمتع باستقطاب مستمر عبر التاريخ.

أخيراً، بينت لنا المحطات السياسية المحورية التي تعتبر منعرجاً رئيسياً في حياة جرمان تيون الخاصة وكذا في حياتها العلمية، كيف أثرت الأحداث المتعلقة بهذه المحطات في تفكير جرمان تيون وفي مواقفها السياسية ومنه في طبيعة ومحتوى أبحاثها

لم تظهر رموزها ومدلولاتها إلا في بعض الصور القليلة فقط (علماً أنه لا يمكن تصوير اللغة)، وحقيقة أننا نرى العديد من الصور التي تعبر عن مظاهر الممارسات الدينية بالأوراس (العيد الأضحى، الزيارة، الأدعية، والحضرة)، لكننا لا نلاحظ أدنى آثار للقرآن، أو الحروز، أو لوحات الزوايا، الشيء الذي دفعنا لتساءل كيف أن جرمان تيون لم تثر مسألة الدين، بل ومسألة اللغة في مهمتها وهي لا تتحدث إلا اللغة الفرنسية! حيث أنها تعبر عن كل هؤلاء الذين ساعدوها في عملية الترجمة وكأنهم أناس لم يتلقوا أي قدر من التعليم، بل وكأنهم منتوج صدف سقطت عليها من السماء، وليس نتاج مؤسسة تعليمية استعمارية.

قد يكون ذلك التقصير نتيجة المبالغة في الموضوعية العلمية لامرأة تبحث في مجتمع أجنبي عنها وفي تخصص "ذكوري" بحث.

بالموازاة، نرى أيضاً أن جرمان تيون قللت من أهمية الميدان السياسي في الأوراس، وخاصة في "لحمر خدو"، القبيلة التي كانت مأكثة بها آنذاك. حقيقة كانت "لحمر خدو" تفتقر إلى شخصيات سياسية معروفة، وهذا لا يعني أن أهل "لحمر خدو" كانوا مجردين من أية ثقافة وتأثير ومواقف سياسية.

في نفس السياق، لا بد من الإشارة إلى أن اختيار اللجنة العلمية للندن ومتحف الإنسان بباريس، لمنطقة "لحمر خدو"، يرجع أساساً إلى الهدف من المهمة العلمية في حد ذاتها تلك التي تتطلب القيام بها بميدان "نقي"، صاف، أصلي ومنعزل عن الحياة المعاصرة، أي مجتمع تقليدي محافظ لم يعرف بعد المؤسسات العصرية (المدرسة، الطريق المعبد، المبادلات النقدية) ليتم الكشف عنه ومن ثمة عرض نمطه المعيشي التقليدي، وثقافته القديمة المهددة بالزوال.

(17) - G. Tillion, *Fragments de vie*, Op- cit, P 298-314.

(18) -Ibid, pp 323-330.

(19) - Germaine Tillion, *Le Harem et les cousins*, Seuil, Paris, 1966.

(20) - Marianne Lemaire, "la chambre à soi de l'ethnologue, une écriture féminine en anthropologie dans l'entre- deux- guerres", IN : *L'Homme*, N°200, 2010, PP 83-112.

(21) -Charles de Jonquières." Deux jeunes parisiennes vont passer un an seules à l'Aurès », In, *l'Echo d'Alger*, 10 Décembre 1934.

(22) - A.L .Breugnot, « Mlle Rivière et Mlle Tillion, chargées d'une mission ethnographique dans l'Aurès, nous disent...", In, *L'Echo d'Alger*, 22 Decembre 1934.

²³ - والتي كان لي الحظ في التمعن فيها بل وفي التعليق عليها أيضا في إطار عمل علي مشترك آخر، حول الباحثة جرمان تيون.

العلمية التي باتت اليوم تكسبها شهرة علمية وعالمية، استنادا لشخصها وكذا لتجربتها المميزة.

(1) - Fanny Colonna, *Aurès Algérie: Photographies de Thérèse Rivière*, OPU Alger/ MSH, Paris, 1987, PP129-130.

(2) - Germaine Tillion, *Fragments de vie*. Textes rassemblés et présentés par Tzeta Todorov, seuil, Paris cal. Point 2009, PP53-54.

(3) - Marcel Mauss, *Manuel d'ethnographie*, Payot, Paris, 1947.

(4) - Germaine Tillion, *Il était une fois l'ethnographie*, seuil, Paris, 2000.

(5) - F.Colonna, Op- cit, P131.

(6) - F.Colonna, Op- cit, P 134.

(7) - لقد قدمت وريثة جرمان تيون -أي حفيدتها-، خمس سنوات بعد وفاة الباحثة، أي سنة 2013، الصور التي كانت قد التقطتها أثناء تلك المهمة مع جملة من الوثائق الأخرى، وجزء من مكتبتها الخاصة، إلى المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ بالجزائر العاصمة.

(8) - Tillion, *Fragments de vie*, Op-cit, pp 07-50.

(9) - « A la rencontre de Germaine Tillion » In : Germaine Tillion, www.germaine-tillion.org, site visité le 20/05/2017.

Germaine Tillion, *Ravensbrück*, Seuil, Paris,

(10) - 1997.

(11) - «Méthodes d'enquêtes sociales en pays berbère», Décembre 1984.

(12) - Tillion, *Fragments de vie*, Op- cit, p18.

(13) - وهو رئيس الجمهورية الفرنسية من 1981-1995.

(14) - G. Tillion, *Fragments de vie*, P 289.

(15) - Michel .Kelle, *Cinq figures de l'émancipation algérienne*. Karthala, Edi sud, 2013, P75.

(16) - CICRC: Comité International Contre les Régions Concentrationnaires.